

# ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٤)

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ .. (١٤)﴾ [الفتح]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق ..  
فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أن يتعلق بالفعل  
( نُوحِي ) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي  
إليهم بالبينات والزبور .

ولقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى :  
فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبور ، فهذان وجهان لعودة الجار  
والمجرور .

والبينات : هي الأمر البين الواضح الذي لا يشك فيه أحد .. وهو  
إما أن يكون أمانة تُبَرِّتُ صِدْقَ الرسالة كالمعجزة التي تتحدى  
المكذِّبين أن يأتوا بمثلاً .. أو : هي الآيات الكونية التي تُلَفِّتُ الخلق  
إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس  
والقمر والنجوم .

(١) الزُّبُرُ : الكتب . والزُّبُرُ : الكتابة . وقد طلب الزبور على سبيل داود عليه السلام . قال  
تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (٥٥)﴾ [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزبور  
ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُرُ ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يكتب عادة إلا الشيء النفيس مخافة أن يضيع ، وليس هنا أنفس مما يأتينا من منهج الله لينتظم لنا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب - قديماً - كانوا يسألون عن كل شيء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم علمٌ بالسهم ومن أول صانع لها ، وعن القوس والرحل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألا يسألون عن آيات الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خلقها تدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ..﴾ (١٤) [النحل]

كلمة الذكر وردت كثيراً في القرآن الكريم بمعنى متعددة ، وأصل الذكر أن يظل الشيء على البال بحيث لا يغيى ، وبذلك يكون ضدّه النسيان .. إذن : عللنا ذكر ونسيان .. فكلمة ذكر ، هنا معناها وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم - عليه السلام - أخذ العهد على كل ذرة فيه ، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وأخذ العهد على آدم هو عهد على جميع ذريته ، ذلك لأن في كل واحد من بنى آدم نرة من أبيه آدم .. وجزءاً حياً منه نتيجة التوالد والتناسل من لدن آدم حتى قيام الساعة ، وما دُمنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

وكان كلمة ( ذكر ) جاءت لنتذكّرنا بالعهد المظهور في تكويننا ، والذي ما كان لنا أن ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمر إرسال الرسل وإنزال الكتب لنتذكّرنا بعهد الله لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. ﴾ (١٧٧)

[الأعراف]

ومن هنا سمينا الكتب المنزلة ذكراً ، لكن الذكر يأتي تدريجياً وعلى مراحل .. كل رسول يأتي ليذكر قومه على حسب ما لديهم من غفلة .. أما الرسول الخاتم ﷺ الذي جاء للناس كافة إلى قيام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقي الذي لا نذكر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد قاتى كلمة ( الذكر ) بمعنى الشرف والرُفعة كما في قوله تعالى للعرب :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ﴾ (١٥)

[الأنبياء]

وقد أصبح للعرب مكانة بالقرآن ، وعاشت لغتهم بالقرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتي الذكر من الله للعبد ، وقد يأتي من العبد لله تعالى كما في قوله سبحانه :

﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. ﴾ (١٥٦)

[البقرة]



﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ بِحُكْمِهَا تَبَيَّنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا  
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٤)

[المائدة]

ومعنى استَحَفُّوا : أى طلبَ الله منهم أن يحفظوا التوراة ، وهذا  
أمرٌ تكليف قد يطاع وقد يُعصى ، والذي حدث أن اليهود عصوا  
وبدّلوا وحرفوا فى التوراة .. أما القرآن فقد تعهد الله تعالى بحفظه  
ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتم الذى سيصاحب البشرية إلى  
قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو  
الحديث الشريف ، فالرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلامى  
وحديثه الشريف الذى جاء من مشكاة القرآن مبيناً له وموضحاً له -  
كما قال ﷺ :

« أَلَا وَإِنِّى قَدْ أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ  
يَتَكَبَّرُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ عَنِّى فَيَقُولُ : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ  
اللَّهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ حَلَّلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ  
حَرَّمْنَاهُ ، أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ »<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٤٤)

[النمل]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢١/٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٥٩١) ، وأبو حبان ( ٩٧ -  
موارد الظمان ) من حديث العقدة بن معن بكرب .

إذن : جاء القرآن كتاباً معجزة ، وجاء كتاباً منهجاً ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلا لطالت المسألة ، وتضخم القرآن وربما بعد عن مراده .

فجاء للقرآن بالاصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أن يبينه للناس ، ويشرحه ويوضح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كل ما جاء به السنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُكاتب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لا بد أن نفرق هنا بين سُنَّة الدليل وسُنَّة الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فَسُنَّة الدليل تعنى وجود فَرَضٍ ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : للصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهي فَرَضٌ .

أما سُنَّة الحكم : فهي أمور وأحكام فتنهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُكاتب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبين لنا الرسول سلوكه وأسنونه حكمًا ننظر : هل هي سُنَّة الدليل فيكون فَرَضًا ، أم سُنَّة الحكم فيكون سُنَّة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإن واطب عليه والتزمه فهو فَرَضٌ ، وإن لم يواظب عليه فهو سُنَّة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مَنَاولَة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهي ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيان .. ولا بُدَّ أن نفرّق بين العطائين : السعطاء القرآني ، والعطاء النبوي .

ويجب أن نعلم هنا أن من المميّزات التي ميّز بها النبي ﷺ عن سائر إخوانه من الرُّسل ، أنه الرسول الوحيد الذي أمّنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلغون أوامر السماء فقط وانتهت المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى في حقّه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [الحشر]

إنّ : أخذ مميّزة التشريع ، فأصبحت سنّته هي التشريع الثاني بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَاعْلَمَهُمْ بِتَفِكْرٍ ﴾ (٤٤)

[النحل]

يتفكرون .. في أي شيء ؟ يتفكرون في حال الرسول ﷺ قبل البعثة ، حيث لم يؤثّر عنه أنه كان خطيباً أو أدبياً شاعراً ، ولم يؤثّر عنه أنه كان كاتباً متعلماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكير والتدبر في هذا الأمر ،

فليس ما جاء به محمد عبقرية تفجّرت هكذا مرّة واحدة في الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيعي للعبقرية يأتي في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من العمر .

ولا يُعقل أن تُرجّل العبقرية عند رسول الله إلى هذا السن وهو يرى القوم يُصوّعون حوله .. فيعوت أبوه وهو في بطن أمه ، ثم

## سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٧٩﴾

تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جدّه ، فمن يضمن له الحياة إلى سنّ الأربعين ، حيث تتجبر عنده هذه العبقرية ؟

إذن : تفكروا ، فليست هذه عبقرية من محمد ، بل هي أمر من السماء ؛ ولذلك أمره ربّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا  
مَنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦)

[يونس]

فكان عليكم أن تفكروا في هذه المسألة .. ولو فكرتم فيها كان يجب عليكم أن تنهافتوا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرّيتم عليه لا كذباً ولا خيانة ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان ليصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بدّ أن نُفرّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التي تستقبل المحسّات وتميّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التي ستكون هي المبادئ التي يعيش الإنسان عليها ، والتي ستكون عبارة عن معلومات مُختزّنة ، أما الفكر فهو أن تفكر في هذه الأشياء لكي تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حرية التفكير وحرية العقل في أمور دنيانا ، لكنه ضيّقنا بأمور قسريّة يفسد العالم بدونها ، فالذي يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا .. والباقي الذي لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفضل فيه لا يضر .

فما أراد الله حكماً قسرياً لرضه بنص صريح لا خلاف فيه ، وما أراد على وجوه متعددة بتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه



أوجهاً متعددة ، ولا يؤدي الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكري يتحكم في المحسّنات ويُنظم القضايا ،  
لنرى أولاً ما يريده الله بقاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فعما  
وصل إليه المجتهد يصح أن يعبد الله به ، ولكن آفة الناس في الأمور  
الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى  
رَمَى مخالفهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فله  
أجران ، وَمَنْ أخطأ فله أجر<sup>(١)</sup> .. ولذلك تجد من الطعام مَنْ يعرف  
طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ،  
ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعاشي الجميع وتُحترم  
الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يأمروهم بالتفكير والتدبر والنظر : ذلك  
لأنهم خلّقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أن يتركهم للضلال والكفر ،  
بعد أن أكرمهم بالخلق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر  
بالطاعة والإيمان .

وكانه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء  
الجدل ولجج الخصومة ، وإن كنتم لا تؤمنون بالبعث في الآخرة ،  
وبما أعدّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم  
وما عُجل لهم من عذاب في الدنيا .

(١) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم  
فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم في  
صحيحه (١٧١٦) ، والبخاري في صحيحه (٧٢٥٢) .



عن المواجهة ، وعلى قَدَر ما يكون المكر عظيمًا يكون الضعف كذلك .  
وهذا ما نلحقه من قوله تعالى في حق النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ (٧٨)

[يوسف]

وقال في حق الشيطان :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦)

[النساء]

فالمكر دليل على الضعف ، وما دلم كَيْدُهُنَّ عظيمًا إذن : ضَعْفُهُنَّ  
أيضًا عظيم ، وكذلك في كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أن يملكك الضعيف ؛ ذلك لأنه إذا تمكّن منك  
وواثته الفرصة فلن يدعَكَ تُقِلَّتْ منه ؛ لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن  
أن قُتِلَ له الفرصة مرة أخرى ؛ لذلك لا يضيعها على عكس القوي ،  
فهو لا يعرض على الانتقام إذا أُتِيحتْ له الفرصة وربما قُوَّتْها لقُوَّتْهِ  
وقُدْرَتْهِ على خَصْمِهِ ، وتمكّنه منه في أي وقت يريد ، وفي نفس  
المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً قَتَلَتْ كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ

إذن : لقدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القوي فليست كذلك .

ثم لنا وقفة أخرى مع المكر ، من حيث إن المكر قد ينصرف على  
مساويك وعلى مثلك من بني الإنسان ، فإذا ما تعرضتَ لمن هو أقوى  
منك وأكثر منك حَيْطَةً ، واحكم منك مكرًا ، فربما لا يُجِدِي مكرُك به ،  
بل ربما غلبك هو بمكره واحتياطه ، فكيف الحال إذا كان الماكر بك  
هو ربّ العالمين قبارك وتعالى ؟



[المجادلة]

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٢٦)

وقوله تعالى :

[النحل]

﴿ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ .. ﴾ (٤٥)

الخسف : هو تغيب الأرض ما على ظهرها - فإلخسف الشيء أي : غاب في باطن الأرض ، ومنه خسوف القمر أي : غياب ضوءه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

[القصص]

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .. ﴾ (٨٦)

وهذا نوع من العذاب الذي جاء على صور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبٍ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا .. ﴾ (٤٠) [العنكبوت]

هذه ألوان من العذاب الذي حاق بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقهم عبرة وعظة ، وأن يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

[النحل]

﴿ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٥)

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكر الله وللعذاب الواقع بهم ، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطر لهم على بال ، وطالما لم تخطر لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أخذهم يسيراً ، كما قال تعالى :

## سُورَةُ الْحَشْرِ

٧٩٦

[الحشر]

﴿فَأَنذَرَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. (٧)﴾

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول :

﴿أَوْيَاخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ فَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ (٨)﴾

الثقلُ : الانتقال من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخر بلبيل القوة والمقدرة ، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه ومَعْتَدَه وجميع ما يملك ؛ لينشيء له حركة حياة جديدة في مكانه الجديد .

إنَّ الثقلُ في الحياة مظهر من مظاهر القوة ، بحيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله في رحلة ثقله .. ولا شك أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوى ..

ولذلك فرى في قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبا :

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا (٩) فِيهَا السُّبُرَ مَسِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٠) فَقَالُوا رَبَّنَا بِأَعْدَائِنَا إِسْأَارًا .. (١١)﴾

[سبا]

فهؤلاء قوم جمع الله لهم ألواناً شتى من النعيم ، وأمن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم وللعجب طلبوا من الله أن يبيد بين أسفارهم ، كأنهم أرادوا أن يتميزوا عن

(١) أي : ليسوا ببهيدين عن الله وإن يفلتوا من عقابه سبحانه .

(٢) قدر كل شيء ومقداره : مقياسه . وقدر الشيء قدره : قاسه . [ لسان العرب - مادة : قدر ]

قال ابن كثير في تفسيره ( ٥٢٢/٢ ) : أي : جعلناها بحسب ما يحتاج

ال المسافرين إليه .

الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٧)﴾ [سيا]

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خوض هذه المسافات .

إذن : الذي يتقلب في الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظعن<sup>(١)</sup> وقسرة على أن ينقل ما لديه ليقسم به في مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : العال في الغربة وطن .. ومن كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿لَا يَغْرُوكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٨)﴾ [آل عمران]

فلا يخيفك انتقالهم بين رحلتى الشتاء والصيف ، فاهـ تعالى قادر أن يأخذهم في قلوبهم .

وقد يراد قلوبهم في الإنكار والمعـ السوء بالرسول ﷺ وصحابته كما في قوله تعالى :

﴿لَقَدْ ابْتِغُوا لَفِتَةً مِنْ قَبْلُ وَقَالُوا لَكَ الْأُمُورَ .. (١٨)﴾ [التوبة]

فقد قعدوا يخططون ويمكرون ويُدبرون للقضاء على الدعوة في مهدها .

ويقول تعالى :

﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٦)﴾ [النحل]

المعجز : هو الذي لا يمكنه من أن تطلبه . ومزلاء لن يعجزوا الله

(١) الظعن : السير والترحال .





والذلك يقولون في الأمثال : ( نَزُولُ الْبَلَاءِ وَلَا أَنْتَظَرُهُ ) ذلك لأنه إن نَزَلَ سَيَنْزِلُ بِلَوْنٍ وَاحِدٍ ، أَمَا أَنْتَظَرُهُ فَيُشَيِّعُ فِي النَّفْسِ الْوَأَنَّا مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ الْفَرْعِ وَالْخَوْفِ - إذن : التَّخَوُّفُ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِنْ وَقُوعِ الْحَدَثِ نَفْسَهُ .

وكان هذا الفرع يعترى الكفار إذا ما علموا أن رسول الله ﷺ بعث سرية من المشركين ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشَيِّعُ الله الفرع في نفوسهم جميعاً ، في حين أنها خرجت لناحية معينة<sup>(١)</sup> .

وبعض المفسرين قال : التَّخَوُّفُ يَعْنِي التَّنْقُصُ بِأَنَّهُ يَنْقُصُ اللهُ مِنْ رُقْعَةِ الْكُفْرِ بِدُخُولِ الْفِجَاءِ فِي الْإِسْلَامِ قَبِيلَةً بَعْدَ أُخْرَى ، فَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَنْقُصُ مِنْ رُقْعَةِ الْكُفْرِ .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ بَشِيرٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية :

﴿ فَإِنْ رَكِبَكُمْ لِرِءَوفٍ رَّحِيمٍ ﴾ [النحل]

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد ؟ قاله العقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أن نعلم أن هذا هو عطاء الربوبية الذي يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فإله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ( ٣٢٥ ، ٤٢٨ ) . وكذا مسلم في صحيحه ( ٥٢٩ ) كتاب المساجد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي » ولقيه « وتعنرت بالعرب بين يدي مسيرة شهر » .



أما في قوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٧٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٨) ﴾ [الرحمن]

فما النعمة في ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ؟ هل الموت نعمة ؟

نعم ، يكون الموت نعمة من نعم الله على عباده ؛ لأنه يقول للمحسن : سيأتي الموت لتلقى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر .. الموت قادم ، كأنه سبحانه يُوقظ الكفار ويمثلهم لينتبهوا عما هم فيه .. ليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده ؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ<sup>(١)</sup> مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأى نعمة في :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن]

أى نعمة في هذا العذاب ؟

نعم المتدبر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة ؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استغفروا على ما هم فيه من الكفر .. ففى طيانتها تحذير وحرص على نجاتهم كما تنوعد ولدك : إذا أهملت دروسك

(١) الشواظ : اللهب الذي لا دخان فيه . [ لسان العرب - مادة : شروظ ] .

ستفضل وأفعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرمك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذيل الآية بقوله :

[النحل]

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٧)

تذيل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التي يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ وَيُظِلُّهُ عَنْ  
الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٤٨)

موله تعالى :

[النحل]

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. ﴾ (٤٨)

المعنى : أعموا ولم يروا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

[النحل]

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨)

كلمة شيء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يقال له شيء . أى : أتلفه شيء موجود ، وهذا يسمونه أجناس الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

[النحل]

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨)

أى : كل شيء .

(١) تليها فيه : نظل ، ونفيل الظلال : رجوعها بعد انقضاء النهار وإبتعاد الأشياء خلالها .  
[ لسان العرب - مادة : فيا ] ..

فانظر إلى أى شيء فى الوجود مهما كان هذا الشيء تافهاً ستجد له ظلاً :

﴿ يَتَقَيَّ ظِلًّا .. ﴾ (٤٨)

[النحل]

يتقياً : من فاء أى : رجع ، والعماد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

قلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل متغير ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كهناج البحار وباطن الأرض ، فهذا ظل ثابت لا تأتيه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظل المتحرك الذى يُسمى القيء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمى الظل شيئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكون الظل ؟ يتكون الظل إذا ما استعرض الشمس جسم كثيف يحجب شعاع الشمس فيكون ظلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أن يبلغ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوت الشمس فى السماء يصبح ظل الشيء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تسيل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظل الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرت إلى الظل وكيف يمتد ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدت شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل في الحالتين يسير سيرا انسيابيا .

ما معنى : ( انسيابي ) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سکونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها في حركة عقارب الساعة ، وهي أوضح في عقرب الثواني منها في عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها في عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثواني لوجدته يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه بجمع الحركة في حال سکونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمر عليه لحظة لم يكن متحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رصدها في عقرب الساعات : لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رصدها وملاحظتها ، هذه هي الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعني أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. أي : حركة مستمرة وموزعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لعلازمتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو في الطفل ؟ هل حركة ففزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طفرة واحدة ؟ لو كان نموه هكذا للاحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزع العلى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكن الدائمة .

وكان الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفت خلقه إلى ظاهرة كونية في الوجود مُحسنة ، يتركها كل حنا في ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظل التي يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَعَلَّاهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ (١٥)﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يعمم الفكرة التسبيحية في الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (١٤)﴾ [الإسراء]

## سُكْرَةُ الْخَلْقِ

٧٩٧

فكل ما يُطْلَق عليه شيء فهو يُسَبَّح مهما كان صغيراً .  
وقوله تعالى :

﴿ يَتَّبِعُ ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

لنا هنا وثقة مع الاداء القرآنى ، حيث اتى باليمين مفرداً ، ففى حين اتى بالشمائِل على صورة الجمع ؛ ذلك لان الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿ اَوَلَمْ يَرَوْا اِلَىٰ مَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

اتى باقل ما يتصور من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :

﴿ ظِلَّاهُ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

بصيغة الجمع . اى : مجموع هذه الاشياء . فالإنسان لا يتفياً ظلّ شيء واحد ، لا .. بل ظلّ اشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا افادت العموم :

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

اى : كل شيء . فليتناسب المفرد جاء باليمين ، وليتناسب الجمع جاء بالشمائِل .

ثم يقول تعالى :

﴿ سَجْدًا لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٤٨) [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظل وبين السجود ؟

معنى : سَجْدًا اى : خضوعاً لله ، وكان حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليل على انه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقاتل



الأعلى لـ « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسَخَّرَةٌ له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كَرْنِيّاً ، والشيء تُعده إعداداً قَدْرِيّاً .. فصانع القنبلة الزمنية يُعدها لأنْ تنفجرَ في الزمن الذي يريده ، وليس الأمر كذلك في إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قَدْرِيّاً قائماً على قوله كُنْ ، وفي انتظار لهذا الأمر الإلهي باستمرار ( كن فيكون ) ، وهكذا .. فليست المعادلة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قَدْرِيّاً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهي ضوءها ، ويُرتَّب على هذا الحكم أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القَدْرِيّ مضبوطة به ومُنْتَظَرَةٌ لـ « كُنْ » التي يُصغى لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٩)

[الرحمن]

هكذا بيّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شيء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شيء » جاءت مُقَرَّدة دالة على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كُلِّفنا الله به من ركن في الصلاة ، وهو مُنْتَهَى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأن نسجد لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجد لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفي هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبر الحق تبارك وتعالى عن فناء الوجود يقول :